

هذه رسالة شخصية جداً، ومهمة جداً، إنها إلى صديق أعزه وأعتز به، وإلى هنا ليس من حقي أن أشغل القارئ بشأن خاص، ولكن الرسالة لها وجهها الآخر، لأنها مرسله إلى واحد من أبناء هذا الوطن الذين يعتز أي وطني بأمثالهم: يرقى ويتقدم بهم، لأنهم حداة النهضة وحملة مشعلها، كما يتقهر الوطن - أي وطن - حين لا يتألون في سمائه، إنه المؤرخ المصري العربي الكبير الدكتور روف عباس الذي أثق أنه بعلمه وعمله وكفاحه ودأبه أكبر من المرض، أي مرض، وكل مرض، كما أثق أنه سيخرج من أزمة طرأت سلمياً معافى وأكثر قدرة على أداء رسالته نحو تلاميذه وأصدقائه ومحبيه ونحو بنى وطنه الذين أعطاهم علمه غزيراً متدققاً، فهل احتمال في سبيل ذلك من عشاق - وما أكثرها - وما لقي من متاعب.. كان ينفصها عن كاهله، وبمضى في طريقه دفاعاً عن كل ما هو جميل ومجيد فوق أرض هذا الوطن، وعبر تاريخ طويل.. مصري بهذه الصفات والسمات والأعمال لا بد أن لديه قدرة وعنده مقدرة على أن يهزم المرض وأن يوجه له ضربة تزيله وتقضى على آثاره، وتبعده عن جسده القوى المتين، فقد أعطاه الله بسطة في الجسم، وسعة في حسن الخلق، وسخر هذا كله لخدمة الناس.. كل الناس.

وإنسان مصري، عربي، عالم مؤرخ، مرب هذا شأنه لا بد أنه سيصارع مرضه حتى يغلبه ويتغلب عليه مستعيناً بيزاد لا يحظى به إلا أمثاله من أصحاب القامات الطويلة، زاد من معين ابن إياس ومن صناعة ابن تغرى بردت، ومن تاريخية الجبرتي.. وهؤلاء مجرد أمثله لن يشدوا أزره بالنجوم الزاهرة ويطيّبوه بعجائب الآثار، ويساندوه بالجواهر الثمين لابن دقماق، ويراووه بالمواعظ والاعتبار للمقريزي، ويطيّبوه بـ«الكامل» لابن الأثير.. ويلتف هؤلاء وغيرهم كثير حول سريره ليكونوا سور حماية من أي مرض لعين.. وهل من يلقي مساندة هؤلاء يحتاج إلى من يعين! فما بالنا وهم يجندون أبناءهم وأحفادهم معهم، من أمثال الدكتور عاصم الدسوقي وعادل غنيم وعبادة كحيلة ونيللي حنا، وناصر أحمد إبراهيم وعماد أبوغازي، ومديحة دوس وصابر عرب وأحمد زكريا، وليلى عنان، وعبدالمعنى الجميلى ووجيه عتيق عشرات ومئات غيرهم.. هل من يحيطه أمثالهم بعنايتهم لا يستطيع أن يقاوم المرض؟ إنه يستطيع ويستطيع لماذا؟ لأنه كما كتب عنه أبوأدهم الدكتور كحيلة بقية باقية من البنائين العظام فقد خلف في علم التاريخ مدرسة ترددت أصدائها في وطنه، وجاوزته إلى وطنه العربي الكبير، واجتمع فيه إلى كونه عالماً، كونه إنساناً مضى به قطار العمر شامخاً مترفعاً عن الدنيا.. لم تعرف عنه ذلة في صبوته، ولا هفوة في سنوات كهولته، وهو في تعامله مع عالما هذا الردي كان العهد به ولا يزال شجاعاً.. يقول قوله حق ومقالة صدق.. لا يقيم وزناً لمال ولا جاه، ومناط المرء عنده عطاؤه.. عطاؤه فحسب»

رجل هذه أخلاقياته لا يمكن أن يصارع المرض ويصرعه لأنه - كما قلت - أكبر من المرض، بعلمه، بخلقه، بإنسانيته، ببساطته بتواضعه، بنبيله، بعطائه بغير حدود لمن يستحق ومن لا يستحق، دون أن يتبع عطائه بمن ولا أذى.. وأياديه - العلمية وغير العلمية - على تلاميذه خير دواء له من أي مرض أو ورم، ولا يعرف هذه الأيادي إلا من اقترب منه وراه كيف يعطى دون أن ينتظر رداً ولا مثوبة، ولا حتى اعترافاً بالجميل.. (حين يعرف) ما يقدم ويعطى سيظن من يسمع أننا نتحدث عن إنسان من زمن آخر، ولكنه وأنداده هم ملح الأرض، الذين جعلوا مصر هي مصر التي نعرفها.. لا أعرف كثيرين يشبهونه في رعايته تلاميذه، ولكن هذه البقية الباقية هي التي تتسلح بعطائها لصد عدوان أي مرض، والخلاص منه.. وهذا ما أثق كل الثقة أنه سيكون له من الفاعلين حتى يكملها رسالته وينجز وعده بأن «يختم حياته» حسب تعبيره في درة سيرته الذاتية «مشيناها خطي» بالعكوف على إخراج ما في جعبته من أفكار «في عمل شامل من عدة مجلدات تغطي تطور المجتمع المصري في العصر الحديث من مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، هذا وعدك يا صديقي وعهدتك وقيماً بوعدك وفاءك لأصدقائك الذين ينتظرون منك هذا العمل الكبير الذي لا يستطيع أحد سواك أن يؤديه مثلما ستؤديه وأثق أن هذا الوعد سينفض المرض عن جسدي، وسيطرده من جسمك ويدعك تتألق كما هي عادتك في كتاباتك وأعمالك العديدة التي أعرف أن لديك منها الكثير فزدنا علماً وثقافة ومعرفة بتاريخنا لنزيد حباً في وطن لا يعرف إلا الحب لأبنائه المخلصين، وأنت واحد من هؤلاء الكبار.. الذين هم أكبر من المرض، أي مرض لأنهم يعرفون أن بلدهم، وطنهم، في انتظارهم، وأنه معهم على موعد، وأنهم لا يخفون للوطن موعداً، إذن انهض يا صديقي، فلن يملأ أحد موقعك بيننا: مؤرخاً، ومعلماً، وحكماً، انهض يا خير المؤرخين وأفضل الأصدقاء

أصدقاؤك في حاجة إليك، وهم واثقون أنك لن تتخلي عنهم، وأنت ستنظّل كعهديك تتألق بينهم لتكمل «خطى مشيناها»، وتستكمل بقية الحكاية.

انهض إذن فأنت أكبر من المرض وأقوى من أى داء، لأنك ببساطة دواء لكثير من العلل التي ابتلينا بها. انهض إذن لنكمل الحكاية ونستكمل الرواية على باب مصر.

انهض إذن.. كي تقود كتيبة من الباحثين والمساعدين لإنجاز تاريخ مصر الاجتماعى فى القرنين الأخيرين هات يدك، وملعون أبوه سرير المرض، انهض يا رجل واعتمد على الله وعلى «مصر للمصريين» درة ترجماتك، ولتقرأ لنا من «توجهات بريطانية شرقية» ولتعلمنا «الحوار الوطنى فى الثقافة السياسية المصرية» ولتطلعنا على كبرى مآسى البشر فى يوميات هيروشيما»، ولتصحح معلوماتنا عن «تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى، ولتحدثنا عن كبار الملاك والفلاحين فى مصر 7381 - 2591 ، ولتعيد طباعة الحركة العمالية فى مصر، ولتحكى لنا تاريخ «جامعة القاهرة.. ماضيها وحاضرها» وتحدث عن جماعة النهضة القومية وليكتشف هنرى كورييل والحركة الشيوعية المصرية»، ولترتل مذكرات محمد فريد». هذا فيض من فيض عطائك الذى سيكون خير دواء لأى داء يصيبك، فأنت حقاً وصدقاً أكبر من المرض وسلمت لى.

<http://www.al-araby.com/docs/article2142176411.html>